أنماط الحبّ في القرآن الكريم: نظرة إجمالية

مدثر عبد الرحيم الطيب نصر*

مقدمة

المحبّة –كما يقول الهجويري– معروفة بين جميع أصناف الخلق، ومشهورة بجميع الألسنة، ومتداولة في جميع اللّغات.[1]

ولكن النّاس قد اختلفوا –وما زالوا مختلفين– في تعريف الحبّ أو المحبّة: وذلك لتباين تصوّراتهم لطبيعة الحبِّ وكُنْهِه من جهة، ثم لتعدّد الأهداف أو اختلاف المقاصد التي يرمون إليها إذ يتحدّثون عنه من جهة أخرى. فالرّاغب الأصفهاني، مثلاً، يُعرِّف المحبّة بقوله إنّها ميل النّفوس إلى ما تراه أو تظنّه خيراً، ثمّ يمضي فيقول إنّها على ثلاثة أوْجُه: محبّةٍ للذّة أو الشّهوة –كمحبّة الرّجل المرأة أو الطّعام، كما في قوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (الإنسان: 8)، ومحبّةٍ للنّفع أو الفائدة– كما يكون بين التّجار وأصحاب الصّناعات المهينة، أو كما في قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ (الصف: 13)، ومحبّةٍ للفضل –كمحبّة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل

---

* أستاذ العلوم السياسية والدراسات الإسلامية بالمعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية، بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. وكان قد أسهم بهذا البحث في المؤتمر العام الرابع عشر لأكاديمية مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي الذي عقد بالأردن (فندق البحر الميت) في شعبان 1428/سبتمبر 2007، وخصص للنظر في "الحب في القرآن الكريم".

[1] الهجويري، **كشف المحجوب**. ترجمة د. إسعاد عبد الهادى قنديل (بيروت: دار النهضة، 1980م)، ص551.

العلم. ثمّ يضيف الأصفهاني قوله إنّ المحبّة رُبَّما فُسِّرتْ بالإرادة- كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ (التوبة: 108)، معلقاً بأنّ ذلك ليس كذلك إذْ أنَّ المحبَّة، في رأيه، أبلغُ من الإرادة: فكل محبّة إرادةٌ وليس كل إرادةٍ محبّة مستشهداً بقوله عزّ وجل: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ﴾ (التوبة: 23) أي آثروه عليه إذحقيقة الاستحباب، كما يقول: إن يتحرَّى الإنسان في الشّيء أن يحبّه. ثمّ يمضي الأصفهاني فيقف عند قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ (المائدة: 54) مشيراً إلى أنّ محبّة الله تعالى لعبده إنعامه عليه، بينما محبّة العبد لربِّه طلب الزُّلفى لديه.[1]

وتزداد دائرة الكلام اتّساعاً إذا تحوَّلنا إلى المتصوّفة. فالقشيري، مثلاً، يؤكّد أنّ المحبّة لا توصف بوصفٍ، "ولا تُحدُّ بحدّ أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبّة والاستقصاء في المقال عند حصول الأشكال، فإذا زاد الاستعجام والاستبهام سقطت الحاجة إلى الاستغراق في شرح الكلام".[2] ثمّ يمضي فيسوق جملةً مما ذكر شيوخ المتصوّفة في المحبّة والحبّ، منها: "المحبّة إيثار المحبوب، وموافقة الحبيب في المشهد والمغيب"، و"محو المحبّ لصفاته وإثبات المحبوب بذاته".[3]

أما الكلاباذي فينقل عن الجنيد قوله "إنّ المحبّة هي ميل القلوب"، مضيفاً أنّ معنى العبارة هو "أن يميل قلب المحبّ إلى الله وإلى ما لله من غير تكلُّف"، ويعقِّب على ذلك

---

[1] الأصفهاني، الرَّاغب، **المفردات في غريب القرآن** (القاهرة: المطبعة الميمنية، 1906م)، ص103-104. وتجدر الإشارة إلى أن الأصفهاني يجعل أصناف المحبّة أربعة، لا ثلاثة، إذ يعرض للموضوع في كتابه الآخر، "الذريعة إلى مكارم الشريعة"، وذلك بإضافته صنفا يقول إنه "يكون مركبا من ضربين كمن يحب آخر للنفع وذلك يحبه للشهوة". "الذريعة إلى مكارم الشريعة" (بيروت: دار الكتب العلمية، 1980م)، ص252.

[2] القشيري، أبو القاسم، **الرسالة القشيرية في علم التصوّف**، تحقيق معروف زريق وعليّ عبدالحميد بلطه جى (دمشق وبيروت: دار الخير، 1988م)، ص319.

[3] القشيري، **الرسالة**، ص320.

بالإشارة إلى أنّ المحبّة هي "الطّاعة لله فيما أمر، والانتهاء عمّا عنه نهى وزجر، والرّضى بما حكم وقدّر".[1] ثمّ يمضي فيقرّر أنّ للقوم وراء ما تقدم به الذكر عبارات تفرّدوا بها، واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم – منها التّجريد والتّفريد، والوجد والسُكْر، والغَيْبة والشّهود، والتجلّي والاستتار، والفناء والبقاء،[2] تتّصل عندهم بالحبّ والعشق وما شاكلهما من عبارات ومصطلحات.

ونعود –بعد هذا العرض الوجيز لمختلف المعاني والمقاصد المتعلّقة بالحبّ والأساليب المتباينة التي بها تمّ تناوله في كتابات نفر من كبار المتقدّمين– إلى ما نحن بصدده الآن من النّظر في الأنماط الرّئيسة التي وردت بها عبارة الحبّ ومشتقاتها وما اتّصل بها من عبارات في عديد من آيات الكتاب الكريم. ونتناول أهمّ أطراف الموضوع في إطار محورين شاملين: **أوّلهما**، حبّ الله سبحانه وتعالى للإنسان –نوعاً وأفرادًا وجماعاتٍ من جهّة، ثمّ حبّ الإنسان لله عزّ وجلّ– أنواعه وسبله من جهّة أخرى؛ **وثانيهما**، حبّ الإنسان لذاته، ولغيره من البشر وسائرالمخلوقات، وبمختلف أنواعه: المحمود منها والمذموم.

وتدخل في كل من المحورين المذكورين تفاصيل عديدة، منها –فيما يتّصل بالمحور الأوّل–، مظاهر حبِّ الله للإنسان: خَلقاً، وتكريماً، وعنايةً، وهدايةً. ومنها – فيما يتّصل بالمحور الثاني– الأعمال والصفات التي بها يتحبَّب الإنسان لربه ويتقرَّب إليه، أو –على عكس ذلك– تلك التي بها يبعد أو يتباعد عنه جلَّ شأنه.

ويتخلّل البحث إشارات ومقتطفات ملائمة لجوانب لازمة من السّنّة المطهّرة والأحاديث النّبويّة الشّريفة، ومن آراء ومواقف عدد من كبار المفكّرين والعُبَّاد المسلمين الّذين تناولوا الموضوع في شتّى أبعاده عبر الحقب والسّنين – على ما قد

---

[1] الكلاباذي، أبو بكر محمّد، **التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف**، تحقيق محمود أمين النواوي (القاهرة: دار الميناوي، 1969)، ص130.

[2] المصدر نفسه، ص132.

يكون بين تلك الآراء والمواقف أحياناً من تنوُّع مُثْرٍ أو اختلاف مبين.

حُبُّ الله للإنسان وحُبُّ الإنسان لله

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تضمَّنَت ذكر حبّ الله للإنسان وحبّ الإنسان لله. منها ما تقدّمت به الأشارة من قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: 54).

ومنها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (آل عمران: 31).

فالله سبحانه، كما جاء في الآيتين الكريمتين، ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾. وعلى ذات النّسق وردت أحاديث نبوية كثيرة منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النّبيّ ﷺ إذ قال في حديث قدسي مشهور: «يقول الله تعالى: مَنْ عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنّوافل حتّى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها: فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه».[1]

ومنها ما رواه البخاري أيضاً في كتاب الإيمان من قوله عليه أفضل الصّلاة والسّلام: «لا يجد طعم الإيمان إلاَّ منْ كان فيه ثلاث: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المَرْءَ لا يحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النّار».

---

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 1423هـ)، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم: 6502، ص1185.

فمحبّة الله تعالى للمؤمنين من البشر الصّادقين، ومحبّة هؤلاء لله ربِّهم وربِّ العالمين أجمعين أمر واضح ثابت في عديد من الآيات القرآنية والأحاديث النّبوّية.

ولكن كثيراً من الأئمة الأعلام المتقدّمين والمتأخّرين وبينهم نخبة من كبار المفسرين –لا سيّما من أصحاب التّفسير بالمأثور كالطّبري والسّيوطي– قد تحرَّجوا، فيما يبدو، عن تناول الموضوع بالشرح والبيان فسكتوا عنه جملةً، في حين اكتفى آخرون بإشارات جدّ مقتضبة لمقتضاه: شأن ابن حجر إذ قال: "إنّ المراد بمحبّة الله إرادة الخير للعبد وحصول الثّواب له"، والقرطبي إذ قال إنّ: "محبّة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران". أما الغزالي فقد قال: "محبّة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشّواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه من كدورات الدّنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتّى يشاهده كأنّه يراه"، في حين قال الزّمخشري إنّ: "محبّة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ويعظهم ويثني عليهم ويرضى عنهم". أما المتأخّرون من أمثال السّيد محمد رشيد رضا والشّيخ أحمد مصطفى المراغي، فربّما غدوا أشد تحرُّجاً عن الشّرح والبيان من أسلافهم السّابقين إذ يقول رضا مثلاً إنّ: "محبّة الله تعالى لمستحقيها من عباده شأن من شؤونه اللائقة به، لا نبحث عن كُنْهها وكيفيتها، وحسن الجزاء من المغفرة والإثابة قد يكون من آثارها"، في حين يقول المراغي إنّ: "حبّه تعالى وبغضه شأن من شؤونه لا نبحث عن كنهه ولا عن كيفيته".[1]

ومع تمام التّقدير والاحترام للظّروف التّاريخية والاعتبارات الفلسفية والكلامية التي ربّما دعت أولئك الأعلام لالتزام هذا النهج من التّحرج الشّديد من الإفاضة في شرح هذا الموضوع الهامّ، كما دفعت آخرين منهم للسّكوت جُملةً عن الإبانة والكلام، فلا شكّ أنّ المرحلة التّاريخية التي تعيشها الإنسانية عامّة ويعيشها المسلمون خاصّة اليوم – ولا سيّما أبعادها الاجتماعية والفكرية والثّقافية التي تحفل بشتّى المذاهب المتصارعة

[1] وردت هذه الأقوال ضمن مجموعة حسنة من المختارات المماثلة في الدّراسة الّتي نشرتها مها يوسف جار الله الجارالله بعنوان **الحبّ والبغض في القرآن الكريم** (بيروت: دار ابن حزم، 2001)، ص59–63.

المتلاطمة وتَعُجُّ بالكثير المتزايد من الأسئلة الهامّة والمُلِحَّة عن كُنْهِ الإنسان وعلاقته بالطّبيعة والكون والخالق المبدع لكل موجود- لا شك أنّ كلّ ذلك مما يستلزم إعادة النّظر في الأمر بحيث تتجاوز الأمّة موقف المتحرّجين عن الكلام اللائذين بدلاً عنه بالصّمت التّام، ومواقف المتحدّثين إيجازاً واختصاراً لا يشفي غليل المتسائلين عن كبريات القضايا من المعاصرين مسلمين وغير مسلمين، وبحيث يتحقّق في ظروف هذا العالم المعاصر البلاغ المبين الّذي أُلْزِمَ والتزم به أصلاً سيّد المرسلين، وسارت على نهجه فيه من بعد أرتال من الدّعاة الصّادقين الموفّقين، والعلماء المفكّرين المبدعين.

إذا صحّ ما تقدّم، وإذا أُتيحَ لنا بناءً عليه أن نَلِجَ الباب (أو، على أقلّ تقدير، أن نطرقه طرقاً خفيفاً) شروعاً في إيضاح بعض ما نحن بصدده الآن من أمر العلاقة القائمة على الحبّ بين الله والإنسان -كما هو ثابت واضح في كثير من النّصوص القرآنية والأحاديث النّبويّة- فلعلّ أول ما تجب الإشارة إليه في هذا المقام هو خلق الله سبحانه للإنسان والكون من عدم، مع أنّه -لو شاء- لما فعل. فإيجاد الموجودات، ومن بينها الإنسان، هو أولّ دليل يشهد على حبّه تعالى الإنسان وسائر المخلوقات.

هذا وقد تكرّرت الإشارات في ثنايا القرآن الكريم إلى أنّه سبحانه قد بدأ خلق الأنسان من طين، وأنّه قد أنعم عليه من بعد فسواه وأتمّ خلقه في أحسن تقويم. من ذلك، مثلاً، ما جاء في سورة المؤمنين من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (المؤمنون: 12-14).

وإذا كان الله قد أحسن كلّ شيء خلقه، كما أنبأنا في القرآن الكريم، فإنه عزّ وجلّ -لحبّه الإنسان ورأفته به- قد خصَّه بالكرامة وفضَّله بذلك على كثير من خلقه تفضيلاً، كما جاء في سورة الإسراء، من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: 70).

هذا وقد كان مبتدأ التّكريم الّذي خصَّ به الإنسان أن سوّاه و"نفخ فيه من

روحه" فرفعه بذلك عن مراتب سائر الحيوانات إلى مرتبة أصبح فيها الإنسان جديراً بخلافته تعالى في الأرض. ثمّ إنّه، لحبّه الإنسان وإيثاره إياه، قد علّمه "الأسماء كلّها"؛ أي آتاه القدرة على التّفكير الممكّن من العلم والإدراك العقلي المستنير – مما ارتفع به الإنسان فوق مرتبة الملائكة المقرّبين فخرُّوا، بأمر الله، له ساجدين.[1]

وثَمَّة جانب ثالث من جوانب الكرامة التي ميَّز الله بها الإنسان عن الملائكة المقرّبين وعن سائر المخلوقات الأخرى من الأحياء وغير الأحياء أجمعين: هي أنّه، لحبّه الإنسان وإعزازه إيّاه، قد هداه النّجدين:[2] أي أعطاه "الأمانة" أو الإرادة الحرّة في الاختيار بين الخير والشّر، والحقّ والباطل، والهدى والضّلال – وذلك كله خلافاً للملائكة وسائر المخلوقات التي جعلها مقيَّدةً كلّها بقوانين أو غرائز ثابتة لا إرادة لها حيالها ولا اختيار، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: 72). ذلك أنّ حريّة الاختيار تتضمّن المسؤوليّة عمّا يفعل الإنسان أو يترك، مما يستلزم مجاهدة النّفس ومغالبة الهوى حتّى لا تزِلَّ الأقدام عن الصّراط المستقيم، وتنطلق الرّوح مرتقية في مدارج الكمال وسبل السّلام. وذلك وفق قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الليل: 9-10)، وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: 37-41).

وهنا يتجلّى جانب رابع من حبّ الله سبحانه للإنسان ورأفته به وحنوه عليه، وهو أنّه لم يترك الإنسان وحيداً في مصارعته أعاصير الهوى ومحاولته النّجاة من حبائل

---

[1] هذه إشارة لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (الحجر: 28–29)، و قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة: 30–32).

[2] هذه إشارة لقوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: 8، 9، 10).

الشّيطان. بل أسعفه بسلسلة طويلة من الرّسل والأنبياء، يرشدونه إذا ضلّ أو هفا، ويذكّرونه إذا نسي أو غفل، ويثبّتونه إذا خار عزمه أو ضعفت قواه. هذا وإنّ أخبار الرّسل ومجاهداتهم إرشاداً وهداية لمختلف الأمم والشّعوب عبر الحقب والقرون قد حفل بها القرآن الكريم – كما هو معروف معلوم.

أما إذا اتّصل الحديث عمّا نحن بصدده الآن من محبّة الله سبحانه للإنسان، ورأفته به، وعطفه عليه، فربّما اتّسع المقام "إضافة لما سبقت إليه الإشارة من خلقه الإنسان من عدم، ثمّ إبداعه في أحسن تقويم، ثمّ اختصاصه بالأمانة والكرامة بشتى الوسائل والسبل، ثمّ إرساله الأنبياء والرّسل مبشّرين ومنذرين" لذكر نقطة خامسة هي أنّه تعالى قد سخّر للإنسان ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ (الجاثية: 13)، ودعاه للتّمتّع بكلّ ما فيها من طيّبات ومنافع وزينة وجمال فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ (النحل: 114)، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف: 31-33).

ولكن الحياة الدنيا –وإن طالت وطاب نعيمها– إنّما هي إلى زوال. هذا ما تُثْبِتُه المشاهدة المتكرّرة في كلّ زمان ومكان، وما يؤكّده كذلك قول الله تعالى في سورة الرّحمن: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ (الرحمن: 26). فهي على أحسن الفروض إذن دار اختبار وابتلاء يستفرغ فيها الرّاشدون قصارى جهودهم تطهيراً للنفوس من الأوهاق والآثام، واستكثاراً من الفضائل وصالح الأعمال: استعداداً ليوم الحساب وما يفضي إليه في دار البقاء من نعيم أبديّ مقيم، أو عذاب سرمديّ أليم.

ولكن الإنسان –وإن صحّ إدراكه لكلّ ما تقدّم ولجميع ما ينبني عليه من مستلزمات، وإن صدق عزمه من ثمّ على التّباعد جهده عن الآثام المهلكات والتزام

الفضائل المنجيات- فيه ضعف طبيعي هو الّذي استزلّ به الشّيطان آدم وحواء فأخرجهما من الجنّة قديماً، و لم يزل يستزلّ به ذريّتهما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

في هذ المعترك الأزلي الأبديّ بين الإنسان والشّيطان، وبين الخير والشّرّ، وبين الهدى والضّلال، يتأرجح الإنسان بين الخوف والرّجاء، وبين اليأس والأمل، فلا يسعفه إلاّ الإيمان بالله وما يعلمه يقيناً من حبّه له، ورأفته به، وعطفه عليه، وبأنّه هو الرّحمن الرّحيم الّذي وسعت رحمته السّماوات والأرض، وبأنّه سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وأنّه تعالى قد قال في محكم تنزيله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: 53).

وبغفرانه تعالى ذنوب عباده -مهما عظمت وكثرت- تتحقق المِنَّةُ السادسة من جلائل النعم التي أسبغها الله سبحانه على الإنسان: حُبًّا له، ولطفاً به، وتَفَضُّلاً عليه.

وغني عن القول أن ما أفاض الله على الإنسان من ضروب نعمه وأصناف رحمته أَجَلُّ وأكثر -بكثير!- ممّا سلفت الإشارة لبعضه في هذا المقام، بل وممّا لا يمكن أن يقدر على إحصائه أو الإحاطة به سائر خلق الله في أي زمان أو مكان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ (إبراهيم: 34).

ولكن حب الله للإنسان -على سعته ورحابته- لا يقف عند الإنسان بوصفه نوعاً واحداً من أنواع خلقه شمله الله سبحانه بما لا يعد ولا يحصى من نعمه: خلقاً، وتكريماً، وهدايةً، ورعايةً، بل ينصب خاصة على أفراد وجماعات من البشر يتَّصِفون بصفاتٍ مُعيَّنةٍ يتميزون بها عمَّن سواهم فتنهمر بها عليهم شآبيب المزيد من خاص محبته تعالى لهم، وفيوضات رحمته بهم، وجزيل نِعَمِه -ظاهرةٍ وباطنةٍ- عليهم.

هذا، وإننا إذا جعلنا منطلقنا في الإبانة عن مقتضى هذه المقولة ما سبقت الإشارة إليه من قول الزمخشري إن محبة الله لعباده: هي أن يعظهم، ويرضى عنهم، ويثني عليهم، وأن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم، فسنجد أمامنا ثروةً كبيرةً من آيات الكتاب الكريم يستحث فيها سبحانه "أولي الألباب" من الرجال والنساء على الاستجابة لما

يحييهم من صدق الإيمان به، ومداومة ذكره، والتفكر في خلقه، واستباق الخيرات في كل باب من أبواب الحياة الخاصة والعامة، إصلاحاً وتزكيةً لأنفسهم، ولبيئتهم المادية والاجتماعية، وأن يكونوا في كل ذلك من المحسنين، المقسطين، المخبتين.

من ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (آل عمران: 190-195).

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (آل عمران: 133-136).

هذا، ومما يزيد كون دعوته تعالى موجهة للنساء والرجال أجمعين تأكيداً قوله في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: 35).

وإضافة لما تضمَّنه عديد من آيات الكتاب الكريم من دلالات حُبِّه تعالى للمؤمنين الصادقين من وعظة لهم وثنائه عليهم ووعده بإثابته إياهم أحسن الثواب

على طاعتهم -كما تقدم- يشتمل القرآن الكريم على كثير من الآيات التي يذكر فيها سبحانه -بصورة مباشرة- أنه يحب المتقين، والمقسطين، والمحسنين، والمتوكلين، والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيله، والمتطهرين، والتوَّابين. فيقول سبحانه في سورة آل عمران مثلا: ﴿... بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 76). ويقول في السورة ذاتها: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: 133-134)، ثم يقول سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: 146-148)، ثم يقول مخاطبا رسوله الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159).

وعلى الشاكلة ذاتها يقول في سورة المائدة: ﴿... وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة: 42).

ثم يقول في سورة الحجرات: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: 9).

هذا، وإنه سبحانه يُثْبِتُ حُبَّه لبعض الأفراد والجماعات ابتداءً لا تعقيباً، كما في بعض ما تقدم به الذكر من آيات الكتاب الكريم، كما يقول في سورة الصَّفِّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: 4). ويقول في سورة النساء: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 95).

وعلى عكس ما تقدم يبين الله في مواقع كثيرة من محكم تنزيله أنه تبارك وتعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 190)[1] وأنه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الشورى: 40، وآل عمران: 57)، وأنه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: 64، والقصص: 77)، وأنه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (النحل: 23) وأنه ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: 36) وأنه عزَّ وجل ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (آل عمران: 32؛ والروم: 44-45)، و﴿لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ (الأنفال: 58) و﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: 141، والأعراف: 31).

بهذا نختتم الكلام على الشق الأول من القسم الأول من هذا البحث، وفيه عرضنا لحب الله للإنسان: نوعاً وأفراداً وجماعات. وفيما يلي ننتقل للحديث عن الشق الثاني منه، وفيه نتناول حب الإنسان لله سبحانه.

ونفترع الحديث عن هذا الجانب من الموضوع باسترجاع ما سبقت الإشارة إليه من آيات يذكر فيها الله سبحانه أقواماً "يحبهم ويحبونه"، ثم الحديث القدسي الذي يقول فيه سبحانه: "ما تقرّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها..." إلخ.

ويلحق بذلك ويؤيده ما رواه البخاري عن أنس بن مالك أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ فقال: «ما أعددتَ لها؟» قال الرجل: ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. فقال الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة مع التسليم: «أنت مع من أحببت».[2]

هذا، ويذهب أكثر الناظرين في حب الإنسان لله إلى التمييز بين مراتب مختلفة منها تنبثق أولاها (ويصفها صاحب كتاب اللُّمع في التصوف بقوله: إنها "محبة العامة")

---

[1] والنص الكامل للآية الكريمة: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾.

[2] رواه البخاري، **صحيح البخاري**، في كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، حدرث رقم: 5819، ص1131.

عن إدراك الخلق إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم - وفق ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «جُبِلَتِ القلوبُ على حُبِّ من أحسن إليها، وبُغْضِ مَنْ أساءَ إليها».[1]

وأرفع من تلك المرتبة ما روي عن الجنيد إذ سئل عن المحبة فقال: "إنها دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب - وفق ما جاء في الحديث القدسي من قوله تعالى: «... فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها...»إلخ.[2]

وشبيهٌ بهذا ما رواه أبو طالب المكي من رد رابعة العدوية على سفيان الثوري إذ سألها: "ما حقيقة إيمانك؟" إذ قالت: "ما عبدت الله خوفاً من الله، فأكون كالأمة السوء إذا خافت عملت، ولا حُبًّا للجنة، فأكون كالأمة السوء إن أعطيت عملت، ولكنى عبدته حُبًّا له وشوقاً إليه".[3] هذا، وقد طبَّقَت الآفاقَ شهرةً على هذا النهج الأبياتُ الأربعة التي قالت فيها رابعة مناجية ربها:

أُحِـــبُّك حُـــبَّينِ: حبَّ الهوى ... وحُـــبًّا لأنـــك أهـــل لـــذاكا
أمـــا الـــذي هـــو حُبُّ الهوى ... فـــشغلى بذكـــرك عمّا سواكا
وأمـــا الـــذى أنـــت أهلٌ له ... فكـــشفك للحجب حتى أراكا
فـــلا الحمـــد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا[4]

هذا، وقد خص القرآن بالذكر ثلاث مراحل، أو حالات، ترتقي النفس عبرها -بالمراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والتزكية، وتجديد المتاب، والتزام الطاعات، والذكر، والدعاء، والتباعد عن المعاصي والآثام على النحو الذى سبقت الإشارة إليه- درجةً

---

[1] الطوسى، أبو نصر عبدالله بن علي السرَّاج، **كتاب اللمع في التصوف**، تحقيق رنولد ألن نيكلسون (ليدن: مطبعة بريل، 1941م)، ص58.

[2] المصدر نفسه، ص59.

[3] المكي، أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي، **قوت القلوب في معاملة المحبوب** (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997م)، ج2، ص94.

[4] المرجع نفسه.

بعد درجةٍ في مراتب الكمال.

أولى تلك المراتب وأدناها هي الحال التي تكون فيها النفس ﴿لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: 53). ينتقل بعدها الإنسان -بالمراقبة والمحاسبة- إلى مرحلة ثانية تصير فيها ﴿بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: 12). ثم يتتابع المسير وتتصل الرحلة -بالمزيد من المجاهدة والتزكية وتجديد التوبة ومداومة الذكر والدعاء إلخ- حتى تبلغ ثالثة المراحل وأرقاها: وهي التي تصبح فيها ﴿ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر: 27) بالاقتراب من كَنَفِ الله والتمتع برضاه فتكون أهلاً لتلقى دعوته تعالى أن ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ (الفجر: 27-30).

هذا وقد اتسعت -وتنوعت- فيما بعد أبواب الكلام عن الأحوال والمقامات ومدارج أبواب السلوك لا سيما على يد المتصوفة -كما هو معلوم مشهور، وعلى نحو يتجاوز حدود ما نحن بصدده في هذا المقام.[1] فعليه ننتقل الآن للقسم الثاني من البحث: وفيه نعرض لحب الإنسان لذاته ولغيره من البشر وسائر المخلوقات- وبمختلف أنواعه: المحمود منها والمذموم.

حب الإنسان لذاته ولغيره

إذا كان جوهر المحبة، كما يقول الراغب الأصفهاني، هو ميل النفس إلى ما تراه أو تظنه خيراً أو سبباً للذَّةٍ أو نفعٍ، فيمكن إيجاز الكلام فيما يخص حبَّ الإنسان لذَاته بالقول أنه يمكن تصوُّرُ وقوعه على وجهين مختلفين، بل ومتناقضين. إذ يقوم أولهما على الاستجابة الصادقة من قِبَل المؤمنين المتَّقين لدعوة الله سبحانه أن ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ (التحريم: 5)، فهم يسعون جادِّين لاكتساب أرزاقهم من كل طيب حلال، ويستمتعون (وأهلوهم) بجميع ما أفاض الله عليهم من نعم وزينة

[1] غني عن القول أن أشهر الكتب التي فصَّلت القول في هذا الباب هو كتاب حجة الإسلام أبي حامد الغزالي "إحياء علوم الدين".

وجمال، غير مسرفين ولا مقتِّرين، بل شاكرين الله دوماً على جزيل نعمائه، حريصين وسعهم على التزام طاعته فيما به أمر، والانتهاء عمّا عنه نهى وزجر، والرضى بما حكم وقدّر[1] – ولو اضطروا في سبيل ذلك أحياناً لمواجهة المِحَنِ واحتمال الشدائد والفتن؛ لأنهم يرتجون من وراء كل ذلك مرضات الله وحسن الثواب يوم الحساب.

هذا، وإن النهج النقيض أيضاً مطلوب مرغوب فيه عند أهله وأصحابه: يتفانون أشدّ التفاني في سعيهم لإدراك أبعد الغايات في كل باب من أبوابه، ويتفنَّنون أيَّما افتنان في ارتياد جميع دروبه واستكشاف المزيد الجديد من أصنافه وآفاقه – ولكن دون ذكر أو التفات لخالقهم ومبدع الأكوان من حولهم: إذ أنهم عنه غافلون أو معرضون، أو بالكلية له رافضون، ومع الإصرار الشّديد به كافرون. فهم لذلك مكبّون على حياتهم الدنيا وحدها، يرون أن السعادة إنما تكون باعتصار ما في العاجلة من شهوات ولذّاتٍ، دون التفات لما تواترت به رسالات المرسلين ونبوات النبيين عبر القرون من أمر الآخرة وما فيها من ضروب النعيم الأبدي المقيم، أو العذاب السرمدي الأليم.

ويجمع الفريقين كليهما قولُ الله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (آل عمران: 14-15).

فكلٌّ من الفريقين محبٌّ متفانٍ في حبه، ولكن أحدهما يحب العاجلة، ويذر الآخرة، في حين يلتزم الفريق الآخر وجهة قوامها الاعتقاد الراسخ بأن الدنيا –مع ما فيها من لذائذ ونِعَمٍ وطيبات– إنما هي معبر ومَمَرّ مقضى عليه بالزوال والفناء، وأن الآخرة هي دار القرار والبقاء، وأن الأمر في الدارين جميعا لله وحده أولاً وآخراً وفى كل حال.

---

[1] هذه إشارة لما سبق ذكره من حديث الكلاباذي في رقم [5] أعلاه.

ولكن الله سبحانه، كما جاء في عدد من آي الذكر الحكيم وأحاديث المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، هو رب العالمين والناس أجمعين، خلقهم جميعاً من عدم: فهم، على اختلاف عقائدهم، وأعراقهم، وألسنتهم، وسحناتهم، كلهم عياله، خصّهم بالتكريم ممثلين في جدهم الأكبر فأسجد لهم الملائكة في السماء، وجعلهم خلائفه في الأرض، وأفاض عليهم من نعمه وعنايته ما ينطق ببالغ حُبِّه لهم أجمعين – كما ذكر إجمالاً فيما تقدم من هذه الصفحات، وكما سلف القول فيه بمزيد من الشرح والتفصيل في غير هذا المقام.[1]

أما فيما يلي من فقرات وصفحات فنشير لعدد من أنماط الحب بين البشر في نطاق الأسرة والمجتمعات الإنسانية اعتماداً، في المقام الأول، على عدد ممّا ورد في الكتاب الكريم من آيات تتعلق بمختلف جوانب الموضوع.

ولعلّ من أول ما يستوقف الأنظار ممّا ورد في القرآن الكريم بشأن الأسرة قوله تعالى في مستهل سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: 1)، ثم قوله في سورة الروم وفى سياقٍ تتوالى فيه الإشارات اللافتة لعدد من آياته تعالى في السماوات وفى الأرض: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: 21).

ولكن الله سبحانه إذ يبيِّن في هذه الآية أن المودة والرحمة هما الأساس المتين الذى تقوم عليه رابطة الزوجية لا يغفل –وهو الخلاّقُ العليم– عمّا يقع بين الأزواج في بعض الأحيان من شَدٍّ وجذبٍ يتعرض معه كيان الأسرة للاهتزاز أو الانهيار. فاحترازاً لمثل تلك الحالات، وحفاظاً على كيان الأسرة، واستنقاذاً لما يربط بين أفرادها من

---

[1] الإشارة هنا للمجلد الخاص بحقوق الإنسان في تعاليم الإسلام وتراث المسلمين الذى أصدره، باللغة الإنجليزية، كاتب هذا المقال ونشر في كل من لندن والولايات المتحدة. وتفاصيل عنوانه كالآتى:

'Abd al-Rahim, Muddathir, *Human Rights and the World's Major Religions:The Islamic Tradition* (Praeger, Westpoint, Connecticut and London, 2005).

وشائج، يقول الله سبحانه تعالى في سورة النساء: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: 35). أما إذا استعصت الحال على كل مسعى يلتمس به العلاج فإن القرآن الكريم يقرِّر –في واقعية لا مطعن فيها– جوازَ الطلاق، على أن يتم (وقد وصفه الرسول الكريم بأنه "أبغض الحلال إلى الله") بأحسن صورة ممكنة في مثل تلكم الظروف، وذلك التزاماً بقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ (البقرة: 229).

ولكن العلاقة بين الأزواج –على مركزيتها وأهميتها البالغة في تعاليم القرآن والإسلام– ليست هي الإطار الوحيد الذى تتفتَّح فيه أزاهير الحب فتعبق بأريجها حياةُ الناس في ظل الإسلام وتعاليم القرآن الكريم. إذ ثمة على أقل تقدير ثلاثُ دوائر أخر تَرْفِدُها تعاليم القرآن والإسلام بروافد ثَرَّةٍ من الحب والتراحم والود: هي علاقة الإنسان بوالديه، وعلاقته بأبنائه، وعلاقته بإخوانه ومجتمعه.

أما فيما يتصل بعلاقة الإنسان بوالديه فلعل أول ما يستوقف الأنظار ويحرِّك أوتار القلوب قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ (الإسراء: 23 –24)، فهو سبحانه يربط في مستهل الآية الكريمة بين عبادته وعدم الإشراك به – وهي أساس العقيدة ومبدأ الإيمان والإسلام– ووجوب الإحسان للوالدين، بحيث لا يخاطبهما إلا محبَّةً واحتراماً وقولاً كريماً، وبحيث "يخفض لهما جناح الذل من الرحمة" –كنايةً بليغةً عن تناهى اللطف في المعاملة وإظهار المودة والتزام الأدب والإجلال–. ويكتمل التعبير عن جميع ما تقدم به الذكر من ضروب الإحسان للوالدين في القول والسلوك العملي، بالدعاء الخالص والابتهال الحار لله تعالى –أثناء حياتهما وبعد الممات– بأن يكلأهما بواسع رحمته وكريم رضوانه، وأن يتولهما بعدُ في رحاب فضله وفسيح جناته.

وقد أكّد الله سبحانه وجوب الإحسان والمحبة للوالدين في الأقوال والأفعال في عدد من آيات الكتاب الكريم غير ما تقدم. منها ما جاء في سورة لقمان إذ يقول تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (لقمان: 14-15)، ففي مستهل الآية الأولى يقرن مرة أخرى بين ذاته تعالى وبين الوالدين حيث يؤكّد سبحانه واجب الشكر لهما معاً، مشيراً بصورة خاصة للأُم وحملها الولد ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، ثم إلى استمرار معاناتها حتى بعد أن تضعه على الأقل إلى حين فطامه. ثم يزيد تأكيد ما سبقت إليه الإشارة من الربط بين الإيمان بالله والإحسان للوالدين إذ يأمر بوجوب مداومة الإنسان مصاحبة والديه بالمعروف والإحسان إليهما – حتى وإن كانا غير مؤمنين به تعالى، وألحَّا على ابنهما إلحاحاً شديداً (جاهداه) على أن يشرك به سبحانه.

أما فيما يتعلق بحب الإنسان بنيه وذريته، فقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تشير إلى أن هذا النمط من الحب الفطري عميق راسخ في القلوب والنفوس حتى يوشك أن يكون "فتنة" يسترزل بها الشيطانُ الإنسانَ عن صراط الإسلام المستقيم. من ذلك مثلاً ما جاء في سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف: 46)، والبنون –كالمال– كما يقول تعالى: زينة، وبهجة، ومتعة. ولكنهم، ما لم يكن للإنسان قدر من الإيمان يعصمه من الفتنة والضلال، يمكن أن يصيروا سبباً للغفلة والغرور والانزلاق –من ثم– في مهاوى الكفر والهلاك. ولذلك يذكّرنا الله في خواتيم الآية بأنّ الباقيات الصّالحات هي خير عند الله وأبقى.

وعلى ذلك النسق –ولكن في سياق أوسع وأشمل– جاء قوله تعالى (وقد سبقت الإشارة إليه): ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران: 14).

أما إذا نأى الإنسان بنفسه عن الإفراط المؤدِّي إلى الفتنة والهلاك، والتزم نهج الإسلام المعلوم في التوسط والاعتدال، فله (بل عليه، كما يقول الغزالي) أن يعبِّرَ عن فرحه بالمولود يولد له –ذكراً كان أو أنثى– فيحتفل بالمناسبة السعيدة، وأن يتخير له (أو لها) اسماً حسناً، ثم أن يتعهده بالتربية والتعليم والتهذيب وحسن التنشئة،[1] غير غافل عن حقوق الطفل في اللعب والمداعبة والترويح عن النفس –كما تواترت بذلك الأخبار عن الرسول الكريم لا سيما فيما يتصل بحبه الحسن والحسين– حتى يشبَّ عن الطوق ويستقلَّ بنفسه.

أما فيما يتعلق بمحبة الإنسان رفاقه وأفراد مجتمعه، فقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة منها ما ارتفع بالمؤمنين من مرتبة الود والمحبة إلى درجة الأُخُوَّةِ الكاملة –كما قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: 10)– ومعلوم أن عبارة "إِنَّمَا" أداة حصر تفيد في هذا السياق أن الصلة بين المؤمنين ليست شيئاً غير الإخاء المحض، فهم إخوة لا غير. ومنها ما وصفهم فيها بقوله تعالى أنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: 29) وأنهم لذلك، وكما كان حال الأنصار عند استقبالهم إخوانهم المهاجرين، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: 9).

هذا وقد وصلتنا مجموعة معتبرة من الأحاديث المتفق عليها تؤكِّد كلها ما سبقت الآيات المذكورة أعلاه لتقريره وإثباته. من أشهرها ما رواه النعمان ين بشير عن رسول الله أنه قال: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى»،[2] ومنها حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».[3]

---

[1] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **إحياء علوم الدين** (بيروت دار الخير، 1997م)، ج2، ص90 وما بعدها.

[2] النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري، **المنهاج شرح صحيح مسلم** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط 2، 1392هـ)، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج6، ص139.

[3] المرجع السابق، ص139. وقد ذكر الغزالي الحديثين في الجزء الثاني من الإحياء، ص287.

ونظراً لأهمية الأُخُوَّةِ، في تعاليم الإسلام وحياة المسلمين، فقد وردت آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة تحذرهم وتنهاهم عن التنازع والتشرذم والتقاتل، وتدعوهم -على عكس ذلك- للدعم المستمر الفاعل لعوامل التوحُّدِ والتعاضد والتراحم: على نطاق الأمة والعالم، وفيما يتصل بالعديد من الروابط الاجتماعية فيما دون ذلك المستوى: كالعلاقة بالجيران والأقربين، وفيما يتصل بمعالجة أوضاع الفقراء، والمساكين، واليتامى، واللاجئين وسائر فئات المحتاجين والمنكوبين.

هذا، وإن من أهم المزايا التي امتازت بها تعاليم الإسلام وحضارة المسلين عبر القرون أنها شملت مجموعات كثيرة وكبيرة من غير المسلمين، وذلك وفق ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الممتحنة: 8-9)، وبناءً على تعاليم المبعوث رحمةً للعالمين وسيرته وسيرة من مضى على نهجه من بعد في مشارق الأرض ومغاربها عبر الحقب والسنين.[1]

يتضح مما تقدم أن القرآن الكريم قد تضمَّن أنماطاً مختلفة من الحب، بينها حب الله للإنسان، وحب الإنسان لله، ثم حب الإنسان لذاته وحبه لغيره من البشر وسائر المخلوقات. وتلتقي جميع تلك الأنماط (باستثناء حب الإنسان لذاته منكفئاً على شهواته ومعرضاً عن الله ورسالاته) فيما يمكن وصفه بالحب المباح، أو الحب المحمود المطلوب.

على أن ثَمَّة صنفاً آخر من الحب قد ورد ذكره أيضاً في القرآن الكريم، لكنه يشذُّ عن ذلك النسق إذ يمكن وصفه [مثل حب الإنسان نفسه منكفئاً على ذاته كافراً بربه ورسالاته] بأنه الحب الحرام أو الحب المذموم. والإشارة هنا، كما قد يتبادر لذهن كل من قرأ القرآن الكريم ولو مرة واحدة عابرة، لِحُبِّ امرأة العزيز لربيبها

[1] للمزيد من تفاصيل هذا الجانب الهام من الموضوع يمكن الرجوع للدراسة التي أصدرها كاتب هذا المقال عن حقوق الإنسان في تعاليم الإسلام وتراث المسلمين والتي سبقت الإشارة إليها أعلاه.

وربيب زوجها، يوسف الصديق عليه السلام: إذ ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ كما جاء في القرآن على لسان صويحباتها، فنصبت شباكها لغوايته حتى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ (يوسف: 23-30؛ ثم 50-56).

وهكذا اجتمعت بين دفتي الكتاب الكريم جميع أنماط الحب: الإلهي منه والإنساني، المحمود منه والمذموم، الحلال منه والحرام – كل في موقعه وبالصورة الملائمة في سياقه: عبرةً وهدىً للعالمين.

كلمات ختامية

لا جدال في أن ما تضمنته هذه الصفحات لم يستنفد القول في كليات الموضوع ولا في تفاصيله – لا من حيث الوصف المجرد، ولا من حيث التفكيك والتحليل (كما يقال هذه الأيام) لأبعاده النفسية والفنية والاجتماعية الكثيرة المتشابكة؛ إذ لم يكن ذلك هدفه ولا القصد منه. بل كان الهدف منه إلقاء "نظرة إجمالية" عليه كما هو واضح في عنوانه وذلك بغية إبراز معالم الموضوع أو"أنماطه" وأبعاده المختلفة الرئيسية. وهذا ما يرجى أن يكون قد تم إنجازه فيما تقدم.

وثَمَّة نقطة أخرى لا بد من الإشارة إليها، ولو على وجه الإجمال، قبل الختام. تلك هي أنه – كما قد يتوقع في ضوء ما تقدم، ونظراً لمكانة القرآن المحورية في حياة المسلمين في كل زمان ومكان، فقد كانت لجميع أنماط الحب التي سبقت الإشارة إليها آثار واضحة وأصداء ما زالت تتردد في تراث المسلمين الفني والفكري، الرفيع منه والوضيع، في مختلف أنحاء المعمورة، وفى شتَّى اللغات والأساليب والأدوات. يتضح ذلك –ليس فقط في المشهور المتداول من ابتهالات المتصوفة وسبحاتهم الروحية من لدن الحسن البصري ورابعة العدوية ومولانا جلال الدين الرومى ومن قبلهم وبعدهم من الأعلام، كما في تأملات ابن حزم في كتابيه المشهورين: "مداواة النفوس" و"طوق الحمامة"– بل أيضاً –وليس أقل أهمية– في العديد من روائع الفنون الإسلامية

المرئية من مثل ما خلَّدَ به شاه جاهان عميق حبّه لعقيلته ممتاز محل في رائعته المعمارية الفريدة "تاج محل"، كما في المحاورات الفكرية والفلسفية الدقيقة التي دارت، على سبيل المثال، بين ابن تيمية والقائلين بوحدة الوجود، والتي صاغ ابن تيمية في أثنائها نظرية كاملة في الحبّ يمكن مقارنتها من بعض الوجوه بنظرية غريمه الشهير ابن عربي، مدارها محورية الحب ليس فقط في حياة الإنسان في كل زمان ومكان، بل على نطاق الكون كلّه.[1]

وكل ذلك، إضافة للكثير الوفير مما لم يتيسّر لنا الوقوف عنده فيما تقدم، مما يستحق المزيد العميق من النظر والتدقيق، وعسى أن تتاح فرصة لمعالجة بعض جوانبه في مقبل الأيام.

والله المستعان على كل حال، وبه التوفيق في البدء والختام.

[1] ضَمَّنَ ابن تيمية نظريته السالفة الذكر في رسالته التي سمَّاها "قاعدة في الحب". وقد نشرت أكثر من مرة.